العربية لغة القرآن

الحقيقة والأسطورة

اللغة العربية من أقدم اللغات التي ما زالت تتمتع بخصائصها الصوتية والتركيبية والدلالية. وعكس باقي اللغات المتداولة اليوم مازالت العربية هي لغة القرآن الكريم ولغة الشعر الجاهلي في صرفها ونحوها ومعجمها. وقد انشغل الباحثون والمؤرخون منذ عصر التدوين بإشكالية التأريخ للغة الضاد لارتباطه بتاريخ العرب وعلاقتهم بباقي الأمم لكنهم اعتادوا الجزم بأنه لا يعرف عن طفولة اللغة العربية شيء. وأقدم ما يعرف منها يصل إلى القرن الخامس الميلادي على أبعد تقدير. وهذه النصوص الأدبية المروية تمثل اللغة العربية في عنفوان اكتمالها. لكن مع تطور البحث الأثري، وظهور العديد من الاكتشافات الأثرية التي تمنحنا دلائل مادية على مراحل نشأة العربية وتطورها غدت العديد من المسلمات والأخبار قابلة للمراجعة والتأويل. وفي هذا السياق تحاور جريدة العلم الدكتور محمد مرقطن الأستاذ المتخصص بلغات وحضارات الشرق القديم في جامعة مُونستر بألمانيا، وأحد أهم الباحثين في النقوش القديمة واللغات السامية للحديث عن الجذور التاريخية للغة العربية في ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة. كما ننشر رؤية أخرى لتاريخ العربية وقراءة تأويلية لنصوص الأخباريين من خلال مقال هام للدكتور أحمد العلوي رئيس اتحاد اللسانين المغاربة.

الاكتشافات الأثرية في الجزيرة العربية في آخر أربعة عقود قلبت الموازين في معارفنا عن تاريخ اللغة العربية وتاريخ العرب قبل الإسلام

في اعتقادكم في ماذا يفيد البحث الأثري في تغيير أو تصويب النظرة إلى تاريخ اللغة العربية وأهميتها؟

البحث الأثري يزودنا بمعلومات هامة جدا عن التكوين التاريخي للغة العربية أو ما يمكن أن نسميه التاريخ المبكر للغة العربية أي مرحلة ما قبل الإسلام. الاكتشافات الأثرية هي التي تزودنا بمادة لغوية من نقوش أو مدونات العرب قبل الإسلام، والتي تسمح لنا بإعادة النظر في المسلمات المعروفة حول تاريخ اللغة العربية، والتي تعتمد عادة على مصادر التراث العربي. فلا يكفي الاعتماد فقط على ما يسمى بالشعر الجاهلي والذي لا نستطيع أن نحدد تاريخ الكثير منه بفترة محددة وبشكل دقيق، أو ما يسمى بسجع الكهان الذي يبدو أن معظمه من فترة بداية الدعوة النبوية.

وبالتالي فإن دراسة تاريخ اللغة العربية بشكل متكامل لم يعد ممكنا بدون الأخذ بعين الاعتبار الاكتشافات الأثرية، فهي الوثائق الأصلية. وحقيقة لا توجد دراسات عربية جادة تتناول تاريخ اللغة العربية بكافة مراحلها التاريخية وتأخذ بعين الحسبان المكتشفات الأثرية على غرار كتاب «كيس فرستيغ، اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ترجمة محمد الشرقاوي (القاهرة: المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة، 2003)»، رغم بعض التحفظات البسيطة على هذا الكتاب. وحقيقة لا تكفي مصادر التراث العربي لكتابة تاريخ اللغة العربية بكافة مراحلها، عدا عن ذلك أن هذه المصادر يجب التعامل معها بروح نقدية، فمن الذي يستطيع أن يحكم على أن لغة سيدنا آدم وسيدنا إسماعيل كانت العربية مع الخلط بالسريانية، ويفضّل أن نعتبر هذا ضمن القصص الديني، وتبقى هذه مسألة إيمانية. وبالتالي لا بد من استخدام الشواهد اللغوية الموجودة في مدونات ونقوش الجزيرة العربية من عصور ما قبل الإسلام والتي تصحح لنا مسار دراسة تاريخ اللغة العربية.

تزودنا النقوش بمادة علمية هامة فيما يخص استخدامات اللغة العربية وفيما يخص المعجمية العربية، فيظهر من خلال النقوش بأن العربية كانت تستخدم كلغة قانونية، فيذكر العلماء بأن المرافعات القانونية كانت تُدار بالعربية في مدينة البتراء عاصمة الأنباط في الأردن. وتخبرنا النقوش بأن هناك تطورا ملحوظا في معجمية اللغة العربية وخاصة المصطلحات الطقوسية والأدبية وغيرها.

وهل يمكن القول بأن الاكتشافات الأثرية قد غيرّت الصورة المتعارف عليها عن تاريخ الجزيرة العربية ولغاتها، وأوضحت كثيرًا من المسائل المتعلقة بتاريخ العرب ولغتهم، ومنها الجذور التاريخية للخط العربي؟ وكيف ذلك؟

الاكتشافات الأثرية في الجزيرة العربية في آخر أربعة عقود قلبت الموازين في معارفنا عن تاريخ اللغة العربية وتاريخ العرب قبل الإسلام. ولا بد في البداية من الإشارة إلى أن العرب لم يكونوا أميّين قبل الإسلام بعد اكتشاف نحو مئة ألف نص مدون في كافة أنحاء الجزيرة، وبالتالي لا بد من التأكيد على أنه لا يجوز استخدام المصطلح جاهلية للدلالة على مرحلة ما قبل الإسلام بالصورة النمطية التي وضعتها كتب التراث، وخاصة أن مصطلح الجاهلية ظهر متأخرا وعلى ما يبدو من اختراع الإخباريين العرب في العصر العباسي.

وما هي أصول الخط العربي الذي استخدم في تدوين القرآن الكريم، ومن أين أتى إلى أن تطوّر وتحوّل إلى قيمة جمالية وفنية ؟

> **العرب لم يكونوا أميّين قبل الإسلام بعد اكتشاف نحو مئة ألف نص مدون في كافة أنحاء الجزيرة**

أصل الخط العربي يعود إلى الخط النبطي ولدينا شواهد حول أصول الخط العربي من النقوش النبطية تظهر لنا مراحل تطور الخط العربي من النبطي وتبدأ في القرن الأول الميلادي وتمتد هذه المراحل حتى نهاية القرن السادس الميلادي، ولكن يجب التشديد على أنه ابتداء من القرن الرابع الميلادي بدأت تظهر ملامح أشكال الخط العربي بشكل واضح. ولكن تجدر الإشارة إلى أن هناك نظريات مختلفة عن أصل الخط العربي قبل أن تحسم مكتشفات آخر ثلاثة عقود المسألة بشكل نهائي حول أصل الخط العربي وتطوره من الخط النبطي.

ولدينا شواهد كثيرة حول أصول وتطور الخط العربي من النقوش النبطية المؤرخة خاصة من القرن 3-4 الميلادي ومنها نقش أم الجمال الأول (250-270م) ، وكان قد عثر عليه في أم الجمال في الأردن، ونقش المابيات والذي اكتشف عنه في العُلا في المملكة العربية السعودية ويؤرخ بـ 280م. وكذلك نقش النمارة المعروف من جنوب غرب دمشق، والمؤرخ بسنة 328م. وهناك نقشان جديدان من سكاكا شمال غرب المملكة العربية السعودية، الاول يؤرخ بالقرن 4-5 م. والثاني 5-6م تقريبا. ويضاف إلى ذلك نقش وائل بن الجزاز الذي اكتشف حديثا في موقع الأقرع في الشمال من الحجر (مدائن صالح) على طريق الحج

الدكتور محمد مرقطن

> **لا يمكن الاعتماد على مصادر التراث العربي لكتابة تاريخ العرب قبل الإسلام منفردة ، فهي مؤلفات متأخرة عن الأحداث ، عدا عن أنها مليئة بالأساطير التاريخية وما يسمى بالإسرائيليات.**

الشامي، ويعود تاريخه إلى سنة 410م، وهناك مجموعة من النقوش المؤرخة اكتشفت حديثا في بيرحمى قرب نجران في المملكة العربية السعودية وتعود للقرن السادس الميلادي. وكذلك نقش جبل أوسيس جنوب شرق دمشق، وخط هذا النقش قريب جدا من الخط العربي، وهو مؤرخ بسنة 528م.

ومن نظريات أصول الخط العربي المتداولة التي أصبح الآن ضعيفة هي نظرية التراث العربي والتي يمكن تصنيفها ضمن النظرية الأسطورية الغيبية والتي تنسب تارة إلى سيدنا آدم أو سيدنا اسماعيل، ونجد في المصادر العربية وصفا لأصول الخط العربي ونشأته وأصوله في الحيرة أو الأنبار بأن العرب كانوا يكتبون المشق، وهو خط فيه خفة، ولأهل الحيرة خط الجزم وهو خط المصاحف، وخط أهل الشام: الجليل. وفي رواية عن ابن عباس، أن أول من كتب بالعربية هو نبيّ اللّه إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وفي هذا الإطار ظهرت نظرية الخط السرياني والتي ما زال لها بعض الأتباع ومنهم مجموعة من الهواة وغير المتخصصين العرب.

وهناك نظرية ضعيفة جدا عن أصول الخط العربي بأنه جاء من الخط المسند والذي تكون منه خط الجزم وتذكر المصادر أنه إنما سمي جزمًا؛ لأنه جزم من المسند، أي: قطع منه، وهو خط حِمير في أيام ملكهم. هذه النظرية والتي تمثل الرواية اليمنية ظهرت على ما يبدو أيام العصبيات ما بين قيس ويمن في العصر الأموي. وما زالت هذه النظرية متعارف عليها ما بين غير المتخصصين خاصة في اليمن.

وهناك فرضية المستشرقين الشعبويين وأتباعهم من الهواة العرب وذلك بعدم وجود خط عربي وكتابات عربية في زمن ظهور الإسلام وهذه الفرضية مُفذلكة ومُؤدلجة بامتياز.

وما هي أماكن تطور الخط العربي في ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة ؟

كانت النظرة العلمية إلى حد قريب تفيد بأن الخط العربي قد تطور في مراحله الأخيرة أي القرن الخامس والسادس الميلاديين في شمال سوريا بناء على الاكتشافات الأثرية، ولكن هذه النظرة تغيرت في الثلاثة عقود الأخيرة، فبناء على النقوش يبدو أن الخط العربي قد تطور في المنطقة الممتدة من نجران في المملكة العربية السعودية إلى منطقة حوران في سوريا.

وكيف في رأيكم تطور التدوين ومهنة الكتابة كمصدر أساس لكتابة تاريخ العرب قبل الإسلام؟

في البداية يجب التأكيد على أن نقوش الجزيرة تعود لحقبة زمنية طويلة من التدوين تزيد على 1500 سنة، وتمتد هذه الحقبة من نحو ألف قبل الميلاد وتستمر بداية الأسلام.

في جزيرة العرب كانت القراءة والكتابة منتشرة بين البدو والحضر، صحيح أن نسبة من كانوا يقرأون ويكتبون كانت قليلة فهذا أمر معروف في الحضارات القديمة واستمر هذا بالتأكيد إلى عهد قريب. ولكن مدونات العرب من عصور ما قبل الإسلام تقدر بأكثر من مئة ألف نقش تم العثور عليها في كافة أنحاء الجزيرة .

فقد دوّن العرب ذاكرتهم الثقافية على الحجارة والبرونز وعسيب النخل وغيرها. فبالإضافة إلى آلاف النقوش التي تمّ حفظها في المعابد والقصور في اليمن من عصور ما قبل الإسلام وتم اكتشافها، لا يكاد يخلو واد، صخرة، حجر، في منطقة في شبه الجزيرة العربية دون أن نجد عليها أو فيها نقشا تذكاريا، فهذا يشكل انقلابا حقيقيا في معرفتنا عن الجزيرة قبل الإسلام. فقد كان العرب يدوّنون في نقوشهم أسماءهم وعشائرهم وقبائلهم ودَلّهم وترحالهم وتمجيد آلهتهم وسجلات خواطرهم ، لقد تمّ العثور على عشرات الآلاف من النقوش العربية الشمالية والجنوبية والتي تحتوي على سجل لحياة العرب وتاريخهم وملوكهم وشرائعهم ومراسلاتهم، وما كتبوه بأيديهم. ولدينا قصائد شعرية من جنوب وشمال الجزيرة العربية مدوّنة على الصخور والحجارة .... ولا انتحال للشعر الجاهلي.

> **الجزيرة العربية هي أشبه بمتحف مفتوح حيث تنتشر النقوش في كل مكان من أنحاء الجزيرة العربية وبادية الشام.**

وبالتالي فإن مدونات وتغريدات العرب وسردياتهم من أهل المدر والوبر عن حياتهم والتي كتبوها على الصخور كي تبقى إلى الأبد وفيها تحذيرات دائمة ضد كل من تسوّل له نفسه بتخريبها بأن لعنة الآلهة ستلاحقهم. وهنا يمكننا القول بأن الجزيرة العربية هي أشبه بمتحف مفتوح حيث تنتشر النقوش في كل مكان من أنحاء الجزيرة العربية وبادية الشام. هذه المدونات هي الأساس لدراسة لغة العرب وتاريخهم. لا يمكن الاعتماد على مصادر التراث العربي لكتابة تاريخ العرب قبل الإسلام منفردة، فهي مؤلفات متأخرة عن الأحداث، عدا عن أنها مليئة بالأساطير التاريخية وما يسمى بالإسرائيليات.

لقد أصبح الآن وبعد الاكتشافات الأثرية في الجزيرة العربية من غير الممكن كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام بدون الاعتماد الأساسي على المدونات أي النقوش العربية الشمالية (ومنها الصفوية والثمودية واللحيانية وغيرها)، والنقوش العربية الجنوبية (السبئية والمعينية والقتبانية)، والتي تمّ العثور عليها بالآلاف في كافة أنحاء الجزيرة العربية من عصور ما قبل الإسلام، ولا يمكن اكتمال الصورة التاريخية للعرب بدون دراسة هذه المدونات.

أخبار العربية:

■ انتقد النجم محمد أبو تريكة الـ»فيفا» لعدم استخدام اللغة العربية في حفل قرعة بطولة كأس العرب بالقول: من فقد هويته تاه في العالم.. اسمها بطولة كأس العرب ولا اسم بالعربي.

■ ينظم مركز اللغة العربية بجامعة سوران محاضرة في موضوع: اللغة العربية والوجود يلقيها الأستاذ محمد اسماعيلي العلوي من جامعة مولاي سليمان ببني ملال يوم الجمعة 2021/04/30

■ عقدت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، عبر تقنية الاتصال المرئي، جلسة نقاشية بعنوان: «اللغة العربية لغة للدبلوماسية والسلام»، نظّمتها مبادرة «بالعربي»، إحدى مبادرات المؤسَّسة، لتسليط الضوء على ريادة اللغة العربية كلغة عالمية تسهم في تعزيز التواصل بين الشعوب. واستضافت الجلسة كلا من: جيرالدين غريفيث، المتحدثة الإقليمية باسم الحكومة الأمريكية، وإيمان اليوسف، الكاتبة والباحثة في الدبلوماسية الثقافية، وأدارها الإعلامي وليد المرزوقي.

■ خصص المجلس الرمضاني لجمعية المعلمين في الإمارات جلسته للحديث عن موضوع العربية في تاريخ البشرية واستضاف لها الدكتور عيسى صالح الحمادي مدير المركز التربوي للغة العربية لدول الخليج في الشارقة. وجرى تنظيم المجلس الرمضاني عن بعد وذلك مساء أمس وأفاض خلال محاورها الدكتور عيسى صالح الحمادي لبيان الرحلة للغوية التاريخية الممتعة لتاريخ لغتنا العظيمة.

■ طرح المجلس الأعلى للّغة العربيّة في الجزائر مشروع استكتاب وطنيّ في موضوع: اللغة العربيّة في الجزائر: منجزات ورهانات ، حمل أربعًا وخمسين (54) مسألة لغويّة تحتاج إلى علاج من قبل المختصّين

■ ينظم المركز التربوي للغة العربية لدول الخليج محاضرة: «وقفات لغوية عند بعض آيات الدعاء» مع: أ.د عبد العزيز الحربي - رئيس مجمع اللغة العربية بمكة المكرمة

تغريدة

الأستاذ أحمد القاري

قضية اللغة، عكس ما يظن كثيرون في بلادنا، من القضايا المهمة في معظم بلدان العالم.

بل هي القضية الأولى في بلدان كثيرة. في بلجيكا وإقليم كيبيك بكندا وإقليم كاطالونيا بإسبانيا مثلا.

وإذا لم تكن قضية اللغة القضية الأولى في بلدان أخرى فذلك لأنها أمر محسوم. اللغة الوطنية الرسمية تكون محمية بالقانون وموضع اعتزاز واعتبار وتكون لغة التدريس في كل المستويات ولغة التجارة والإدارة والخدمات الصحية. وفي حالة البلدان التي بها تعدد لغوي نجد أن مستويات الحكم المركزية والمحلية وصلت إلى تسويات واجتهادات مستقرة تحمي اللغات الرسمية وتنظم استخدامها كما هو الحال في سويسرا وفنلندا.

تنظم القوانين كذلك وضعية لغات الأقليات واللغات الجهوية. فالاتجاه العام هو حرص كل أقلية على حماية لغتها إلى أبعد الحدود. وتختلف البلدان في تجاربها اللغوية مع وجود عناصر مشتركة في التجارب الديمقراطية وهي إعلاء شأن اللغة الرسمية وأولويتها على غيرها وحماية استخدامها في المجال العام وتوفير الموارد لإغناء معجمها وفرض استخدامها بالقانون على كل القطاعات والأنشطة.

يتجلى هذا في حالة الاتحاد الأوربي حيث لا تقبل أي دولة بالتنازل عن لغتها في عمل أجهزة الاتحاد. حتى وصلت لغاته إلى 24 لغة يصل عدد حالات الترجمة بينها على 576. مما جعل أقسام الترجمة في مؤسسات الاتحاد إدارات هائلة بموارد بملايير اليورو.

من تاريخ اللغة العربية

الدكتور أحمد العلوي
رئيس اتحاد اللسانيين المغاربة

هذه المقالة تأويل جديد للأخبار التي يحكم عليها عادة بالأسطورة في الكتابات اللغوية، أو تغفل عمدا إن المراد في هذه المقالة تقديم افتراض لغوي لا عرفي شعوبي لأخبار مأثورة مثل قصة أبناء نوح سام ويافث وحام وغير ذلك مما هو معروف في كتب التفسير والحديث والأخبار والتاريخ. حقا تنقسم هذه الأخبار إلى قسمين: قسم مشترك بين التقليد العربي والتقليد العبري.

وقسم خاص بالتقليد أو التراث العربي. لكن نبادر إلى الإشارة إلى أن كثيرا من الدلائل تشير إلى أن التراث العبري الممثل في الكتاب المدعو عند العبرانيين أو العبريين بالتوراة ليس إلا ترجمة من أصل عربي،..... لذلك نزعم هنا أن هذه الأخبار المفصلة لأمر الشعوب القديمة، وتناسلها من أجداد وآباء مذكورين فيها ليست أخبارا ذات طابع تاريخي، ولكنها أخبار ذات طابع لغوي مقارني، أي أنها تقدم نتائج دراسات مقارنية تاريخية بين أنماط من اللغات. وأن واضعيها نسبوا كل صنف لغوي ميزوه إلى جد أول، وأنهم رتبوا الجدود والآباء، تمثيلا لتتابع الأصناف اللغوية التي قد يكونون اطلعوا على أحجارها أو نقوشها أو مخطوطاتها في أزمانهم.

إن تقسيم هؤلاء الأخباريين العربَ إلى قسمين عاربة ومستعربة لا يعني في هذا السياق إلا الحديث عن لغتين متقاربتين عرفوهما بالاطلاع المباشر أو بالآثار، هما: اللغة العاربة واللغة المستعربة. وحين يقولون إن العرب العاربة والمستعربة من ولد سام فلا يعني ذلك، في هذا التأويل الذي نضعه هنا لأخبارهم، إلا كونهم يعرفون نصوصا للغة أو لا يصح أن تكون أصلا تطوريا للغة العاربة وللغة المستعربة.

وذلك الأصل هو اللغة السامية. إن هذه اللغة لن تكون، إن صح هذا التأويل، لغة افتراضية كما هو الحال في اللغويات المقارنية التاريخية المعاصرة، بل تكون نمطا متحققا من اللغات، اطلع عليه هؤلاء الأخباريون، وسموه باللغة السامية لعلة موضوعية يعلمونها. إن ما قيل هنا عن اللغة السامية يقال مثله عن اللغة الحامية واليافثية: حام ويافث، ترجع إليه شعوب بالتناسل في تلك الأخبار. ولا تزول الأسطورية عنها إلا إذا فهمنا أن هؤلاء الأخباريين لغويون مقارنيون تاريخيون يتحدثون عن تناسل بنيوي بين اللغات، ويعيدونها إلى أصول ثلاثة هي: السامية والحامية واليافثية، ثم يعيدون هذه الثلاثة إلى اللغة النوحية، ويجعلون الأول في كل أصل اسم شخص هو سام أو حام أو يافث. حقا بين هؤلاء الأخباريين تباين في الأصول أحيانا وفي الأولية وفي الأسماء، ولكنهم جميعا يجتمعون في أن أخبارهم لا تستمد منطقيتها إلا من هذا التأويل الذي وضعناه هنا. إننا أمام خيار، فإما أن نحكم على هذا التراث الأخباري بالخرافية، كما يفعل المؤرخون الذين لا صلة لهم باللغويات، وإما أن نحكم عليه بالمنطقية التي يكتسبها في إطار التأويل اللغوي الذي نطرحه هنا..... إن الفكر اللغوي المعاصر أسس في مرحلة من مراحله ما يدعى باللغويات المقارنة بفرعها المهتم بالأسر اللغوية. ووضع صفات اللغات الأولى المفترضة كاللغة الهندوأوربية–الأم واللغة السامية-الأم، وداخلت ذلك كله اعتبارات سياسية وإيديولوجية....

لكن المهم هنا هو الإشارة إلى أن التأويل اللغوي لتلك الأخبار يلغي أولية هذا النوع من الدراسات في التراث الغربي. حقا إن ما ذكر من قبل عن اللغة النوحية والسامية والحامية، وما يمكن أن يذكر من لغات أخرى بدراسة كافة تراث الأخباريين العرب، وما يمكن أن يستمد من الأبواب الأولى من كتاب العبرانيين المدعو عندهم بالتوراة، والذي أصله في اعتقادنا كتاب عربي مفقود، كل ذلك دليل على قدم الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة، لكن الحديث في تلك الأخبار عن أصل العربية ذو ذوق خاص لبقاء العربية فينا، ولكوننا عربا نحب أن نعرف عن تاريخ عربيتنا شيئا.... لذلك، فإن الأصناف اللغوية المذكورة في الجزء المتعلق بالعربية من هذه المقالة ليست تحديدية، إن فيها قولا بأن هؤلاء الأخباريين كانوا يعرفون صنفا من اللغات هو اللغة الجرهمية، وإنها متطورة عن السامية وإن فيها قولا سريا هو أن البنوة في هذه الأخبار تعني ما يعنيه التطور في مصطلحنا. بجانب الجرهمية يفرض علينا هذا النمط من التأويل الحديث عن صنف آخر هو اللغة العمليقية واللغة اللاوذية واليعربية والقحطانية والعادية والثمودية والطسمية والجديسية واليقطنية والإسماعيلية والمعدية. بهذا يبين الغرض من هذه المقالة، إنه كشف مقاصد لغوية تطورية مقارنية تاريخية عند هؤلاء القوم المدعوين بالأخباريين تارة وتارة برواة الإسرائيليات أو أهل الأثر، والذين لا يرضى صحبتهما المؤرخون. إن هؤلاء الأخباريين يتحولون في هذا التأويل إلى لغويين ستروا نتائج أبحاثهم في أخبار، ظاهرها حكايات وباطنها خلاصة فكر لغوي أصيل. ولماذا لا نقول: «فضحوا» نتائج أبحاثهم في تلك الأخبار، وأن العادات الكتابية والمصطلحات تغيرت بين زمننا وزمنهم، فسترت ما فضحوه أو كشفوه، وإذا صح هذا التأويل الذي نضعه هنا، والذي لا تستقيم منطقية تلك الأخبار إلا به، وجب أن يعاد النظر في نتائج اللغويات المقارنية التاريخية المعاصرة في خصوص المجال العربي المدعو بالسامي(....)

في روض القرطاس لابن أبي زرع... أن صنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير. وينقل عن الزبير بن بكار أن صنهاج أبا صنهاجة بن حمير بن سبإ ولد حمير بن سبإ لصلبه. وانظر أيضا الحلل الموشية لمجهول....، وفيه أن صنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير، ص 4 وما حولها.

هذه العبارات ظاهرها أنساب، لكن حقيقتها بيان لأسر لغوية. إن الترابط النسبي هناك عبارة نسبية ميلادية عن صلات لغوية. هذا النوع من العبارات لا يخرج عن الخرافية، إلا إن عد بيانا لصلات لغوية. لذلك فنحن مخيرون بين اكتشاف غايات المخبرين بتلك العبارات، وبين قراءتها مع اعتقاد الخرافة فيها. يشبه ذلك حديث سمرة: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم»، فهل هي أبوة ميلادية؟ كيف يكون العرب جميعا أبناء لسام؟ بأي معنى؟ ليس هناك إلا المعنى اللغوي، وكأنه قال:» سام أبو المتكلمين بالعربية».

لا يقصد بالعرب هناك المعنى العرفي لأن المسمى بالعرب في عهد ذلك المحدث، وفي غير عهده ليس جماعة عرفية. إنها أبوة لغوية، وكأن صاحب ذلك القول يخبر بالأسر الثلاثة الكبرى للغات يشبه ما تقدم عبارة كعب الأحبار عن أول من تكلم العربية، قال: هو جبريل، وقال في مكان آخر هو آدم، وقال ابن عباس إنه جرهم ابن سام، وقال ابن السائب الكلبي: إنه عمليق بن لاوذ، وقال الشرقي بن القطامي: إنه يعرب بن قحطان، ذلك السؤال إنما يستمد منطقيته من كون السائل يسأل عن القبلية أو الشعب لا عن الفرد، ومن كون المجيب عارفا بعلم السائل، ومجيبا بمقتضى ذلك العلم، كأن السائل يسأل عن أول القبائل أو أول الشعوب التي نطقت بالعربية.

أجوبة المجيبين هناك تورد القبائل القديمة المندثرة التي تدل آثرها على أنها أول القبائل أو الشعوب؛ الذي قال إن جدهم بن سام أول من تكلم العربية، إنما يكون قصد أن آثار هذا الشعب أقدم الآثار، وأنها رسمت بالعربية أو إن فيها ما يدل على أن أفرادها كانوا ناطقين بالعربية. وهذا المثل يجري أيضا على أجوبة الآخرين عن سؤال الأول الذي نطق العربية. إن جواب ابن عباس الذي نتخذه هنا مثلا يقتضي من جهة الصحة أحد الأمرين: أن يكون عارفا بعلاقة اللغة الغربية باللغة الجرهمية، وبعلاقة الجرهمية بالسامية، أو ناقلا تلك المعرفة عن مصدق عنده: وفي هذه الحالة يكون ذلك المصدق كتابا أو خبرا أو مخبرا أو أثرا حجريا أو ماديا قائما.

إن كل مصدق لابن عباس في هذا الخصوص ينسب إليه تلك المقتضيات، وما يقال عنه يقال عن الكلبي، فإن قوله يقتضي معرفته باللغة العمليقية، ويقال عن الشرقي بن القطامي الذي أضاف ما يفيد اطلاع العارف بهذا على نقوش العربية اليعربية والعادية والثمودية والعمليقية والطسمية والجديسية واليقطنية والجرهمية والإسماعيلية والمعدية. بل إن في قولته التي نذكرها من بعد ما يفهم منه أن هذا اللغوي الكثير كان عارفا بالفرق بين الأنماط الفصيحة والدارجة في هذه العربيات. كيف يستقيم قول الشرقي إن غفلنا عن المقتضيات التي توجب أن يكون مطلعا على أنماط من هذه اللغات، وأن يكون درسها حتى استخلص أنواعها يقول: «أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان، قال: وهي أفصح من العربية الأولى عربية عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس وبني يقطس بن عابر وجرهم بن عابر... قال: وعربية إسماعيل ومعد بن عدنان أفصح... قال وأول من تكلم بالعربية بلسان فصيح يعرب بن قحطان وبه سميت العرب قال: وقد كانت عاد تكلمت بالعربية ولم تفصح». أليس هذا الكلام دليلا على القضايا اللغوية- التاريخية التالية:

اختلاف هؤلاء اللغويين حول العربية الأولى إلى قائلين بأسبقية الجرهمية أو بأسبقية اليعربية أو بأسبقية غير هذا، مما نعدده هنا.

ثانيا: رجوعهم إلى نقوش وكتابات قارنوا فيها حتى عرفوا الأفصح والفصيح والأقدم والقديم، فلا يرضى أن يقول الشرقي قولا عن «العربية الأولى « مقارنيا وهو يجهلها.

ثالثا: تقسيم العربيات إلى عربية فصحى هي المعدية، وفصيحة هي اليعربية وخالية من الفصاحة هي العربية الأولى. وما الفرق بين الفصاحة والإعراب في هذا السياق؟! ألا يكون ذلك شيئا واحدا إن ظل بالبال قول الشرقي عن العربية التي تظل عربية وإن لم تكن فصيحة. وإن تذكرنا قول الشرقي أفلا يلقي ضوءا على قول من قال: « إن هودا أول من تكلم بالعربية» وهو وهب بن منبه، فالذي قرأ لغة عاد أو من تسمى عندهم بعاد يعلم أنها عربية أولى، ولكنه يجيب عن سؤال عن الأول الذي نطق العربية بإطلاق لا عن الأول الذي نطق العربية الفصحى، فالاختلاف في الأجوبة راجع إلى حدود السؤال: ويشبه هذا قول من نسب الأول إلى إسماعيل، وسمى لغته باللغة المبينة تمييزا لها عن عربية عاد.......

القدماء كانوا يعرفون خطوط النقوش والآثار الماثلة في الأحجار والنصب. يكفي أن نتذكر في هذا الخصوص كتاب « شوق المستهام في معرفة الأقلام « لأبي بكر بن وحشية، نشر ريتر 1802، انظر أيضا ما نقله عبد العزيز بن عبد الله عن البكري، في مسالكه، عن نقوش الحميرية في قرطاجنة بتونس، ويعنون بالحميرية هناك، في غالب الظن، النقوش المعروفة اليوم بالفنيقية أو البونيقية. (عبد العزيز بنعبد الله،)مظاهر الحضارة المغربية، ص: 59). وانظر المقريزي يقول عن الآثار المصرية: إنها مكتوب عليها بالبربرية وهو أسم ما سمي من بعد بالخط الهيروغليفي، بل إن المقريزي يأتي بما يدل على أن ذلك الخط كان معلوما للعالمين به في عهده. انظر المساعد للأب انسطاس ماري الكرملي 2/176.